٤٦ القَرْضُ الحسَنُ

قَالَ رَبُّ العِزَّةِ سُبْحانَهُ في الحديث القُدْسي:

«اسْتَقْرَضْتُ عَبْدِي ، فَلَم يُقْرِضْنى»(١)

يقول الحق سبحانه فى كتابه الكريم :

﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾ {البقرة}

الله هو الذى استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام هو المستدعى إلى الوجود ، فهو سبحانه مكلف بإطعامه ، وأنت إذا أنفقت على المحتاج الذى استدعاه الله للوجود فإنك تتودد إلى الله بمساعدة المحتاجين من خلقه دون أن يلزمك به الله .

وإذا كان هو سبحانه الذى أعطى المال ، فكيف يقول : أقرضنى ؟

نعم ، لأنه سبحانه لا يرجع فيما وهبه لك من نعمة المال ، إن المال الذى لك هو هبة من الله ، ولكن إن احتاجه أخ مسلم فهو لا يقول لك «أعطه من عندك أو أقرضه من عندك».

إنما يقول لك :«أقرضنى أنا ، لأنى أنا الذى أوجدته فى الكون ورزقه

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣٠٠، ٥٠٦) ، والحاكم فى مستدركه (١/ ٤١٨) ، (٢/ ٤٥٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه :«يقول الله عز وجل : استقرضت عبدى فلم يقرضنى، وشتمنى عبدى وهو لايدرى يقول : وادهراه وادهراه وأنا الدهر» قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

مطلوب منى » ، فكأنك حين تعطيه تقرض الله ، وهذا معنى قوله تعالى :
﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (٢٤٥)﴾ {البقرة}

إنه ـ سبحانه وتعالى ـ متفضل بالنعمة ، ثم يسألك أن تقرضه هو .

و لنضرب على ذلك مثلاً من أمر الدنيا ـ وسبحانه وتعالى منزه عن كل مثل وله المثل الآعلى ـ هب أنك محتاج وفى ضائقة مالية ، وعندك أولاد ولهم مبالغ مدخرة مما كنت تعطيهم من مال فتقول لهم :

أقرضونى ما معكم من مال ، وسأرده لكم عندما تمر الضائقة ، كأنك لم ترجع فى هبتك وما أعطيته لهم من مال ، إنما اقترضته منهم ، كذلك يفعل الله سبحانه وتعالى ، ولله المثل الأعلى.

وكذلك لنا عبرة وعظة من السيدة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ عندما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فرآها ممسكة بدرهم ، والدرهم يعلوه الصدأ وأخذت تجلوه ، فسألها أبوها : ما تصنعين يا فاطمة ؟ قالت : أجلو درهماً . قال : لماذا؟ قالت : لأنى نويت أن أتصدق به قال : وما دمت تتصدقين به فلماذا تجلينه ؟ قالت : لأنى أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد المحتاج .

فساعة تسمع «يقرض الله» فذلك أمر عظيم ؛ لأنك عندما تقرض إنساناً فكأنك تقرض الله ، ولكن المسألة لا تكون واضحة ، لماذا ؟ لأن ذلك الإنسان سيستفيد استفادة مباشرة ، لكن عندما تنفق فى سبيل الله فليس هناك إنسان بعينه تعطيه ، وإنما أنت تعطى المعنى العام فى قضية التدين ، وتعاملك فيها يكون مع الله ، كأنك تقرض الله حين تنفق من مالك لتعد نفسك للحرب.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن ينبهنا بكلمة القرض على أنه يطلب

منا عملية ليست سهلة على النفس البشرية ، وهو سبحانه يعلم بما طبع عليه النفوس.

والقرض فى اللغة معناه : قَضْم الشيء بالناب ، وهو سبحانه وتعالى يعلم أن عملية الإقراض هى مسألة صعبة ، وحتى يبين للناس أنه يعلم صعوبتها جاء بقوله «يقرض» ، إنه المقدِّر لصعوبتها ، ويُقدِّر الجزاء على قدر الصعوبة .

وما هو القرض الحسن ؟ وهل إذا أقرضت عبداً من عباد الله لا يكون القرض حسناً ؟

أولاً إذا أقرضت عبداً من عباد الله فكأنك أقرضت الله ، صحيح أنت تعطى الإنسان ما ييسر له الفرج فى موقف متأزم ، وصحيح أيضاً أنك فى عملية الجهاد لا تعطى إنساناً بعينه وإنما تعطى الله مباشرة.

وهو سبحانه يبلغنا أن من يقرض عبادى فكأنه أقرضنى ، كيف ؟ لأن الله هو الذى استدعى كل عبد له للوجود ، فإذا احتاج العبد فإن حاجته مطلوبة لرزقه فى الدنيا ، فإذا أعطى العبد لأخيه المحتاج فكأنه يقرض الله المتكفل برزق ذلك المحتاج.

وقوله تعالى ﴿يُقْرِضُ اللَّهَ ﴿٢٤٥﴾﴾ {البقرة} تدلنا على أن القرض لا يضيع؛ لأن القرض شيء تخرجه من مالك على أمل أن تستعيده ، وهو سبحانه وتعالى يطمئنك على أنه هو الذى سيقترض منك ، وأنه سيرد ما اقترضه ، لكن ليس فى صورة ما قدمت ، وإنما فى صورة مستثمرة أضعافاً مضاعفة .

إن الأصل محفوظ ومستثمر ؛ ولذلك يقول : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ

قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴿٢٤٥﴾﴾ {البقرة} إنها أضعاف كثيرة بمقاييس الله ـ عز وجل ـ لا بمقاييسنا كبشر .

وهناك ملمح فى هذه الآية :

﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴿٢٤٥﴾﴾ {البقرة}

فالمؤمنون فى عبوديتهم لله عبيد لإله واحد ، وقد أغنانا الله بالعبودية له عن أن نذل لأناس آخرين ، وسبحانه قد أنقذ المؤمن بالإيمان من أن يُذِلَّ نفسه لأى مصدر من مصادر القوة ، أنقذ الضعيف من أن يذل نفسه لقوى ، وأنقذ الفقير من أن يذل نفسه لغنى ، وأنقذ المريض من أن يذل نفسه لصحيح.

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴿١٣٩﴾﴾ {النساء}

فساعة يقول الحق سبحانه :﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ {النساء}

فمعناها : إن أردتَ أيها الإنسان عزاً ينتظم ويفوق كل عز فاذهب إلى الله ؛ لأنه سبحانه أعزنا فنحن خلقه.

وعلى سبيل المثال ، نجد أن الحق سبحانه لم يجعل الفقير يقترض ، بل قال : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا . .﴿٢٤٥﴾﴾ {البقرة}

وهنا يرفع الله عبده الفقير إلى أعلى درجات العزة ، العبد الفقير لا يقترض ، ولكن القرض مطلوب لله ، ولذلك قال أحدهم لأحد الضعفاء: إنك تسأل الناس ، ألا تعف ولا تسأل ؟ فقال : أنا سألت الناس بأمر الله ، فالسائل يسأل بالله ، أى : أنه يتخذ الله شفيعاً ويسأل به .

وعندما يطلب الإنسان العزة من مثيل له فهو يعتز بقوة هذا الكائن ، وهى قوة ممنوحة له من الله ، وقد يستردها سبحانه منه ، فما بالنا بالقوة

اللانهائية لله ، وكل قوة فى الدنيا موهوبة من الله ، المال موهوب منه ، والجاه موهوب منه ، وكل عزة هى لله .

ولقد قرن الحق سبحانه بين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل ونُصْرتهم ، وبين إقراض الله قرضاً حسناً .

فقال: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ (١) وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢)﴾ {المائدة}

والزكاة هى إخراج المال على نحو مخصوص ، أما الصدقة فهى غير محسوبة من الزكاة لكنها فوق الزكاة ، وهناك القرض ، وهو المال الذى تتعلق به النفس ؛ لأن الإنسان يقدمه لغيره شريطة أن يرده ؛ ولذلك قيل: إن القرض أحسن من الصدقة ، ذلك أن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما الذى تتصدق عليه فقد يكون غير محتاج ، ويسأل دون حاجة .

وأيضاً ؛ لأن نفس المتصدق تخرج من الشىء المتصدّق به ولا تتعلق به ، أما الذى يقدم القرض فنفسه متعلقة بالقرض ، وكلما صبر عليه نال حسنة ، وكلما قدم نظرة إلى ميسرة ، فهذا له أجر كبير ، هكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

ويصف الحق سبحانه القرض بأنه حسن ، حتى لا يكون فيه مَنٌّ أو منفعة تعود على المقرض وإلا صار فى القرض ربا ، ولنا الأسوة الحسنة فى أبى حنيفة ، عندما كان يجلس فى ظل بيت صاحب له ، واقترض صاحب هذا البيت من أبى حنيفة بعض المال ، وجاء اليوم التالى للقرض ، وجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت ، فسأله صاحب البيت لماذا ؟ أجاب أبو

(١) عزره : أعانه ونصره ووقَّره مثل عزَّره . قال تعالى : ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾{المائدة:١٢} أى : نصرتموهم وحميتموهم . {القاموس القويم ٢/ ١٨} .

حنيفة: خفت أن يكون ذلك لوناً من الربا . فقال صاحب البيت : لكنك كنت تقعد قبل أن تقرضنى . فقال أبو حنيفة : كنت أقعد وأنت المتفضل علىَّ بظل بيتك ، فأخاف أن أقعد وأنا المتفضل عليك بالمال.

والقرض الحسن هو الذى لا يشوبه مَنٌّ أو أذى أو منفعة .

ولأن القرض دَيْن وضع الحق سبحانه له القواعد ، فقال تعالى :﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ** (٢٨٢) ﴾ {البقرة}

فالحق يحمى المقترض من نفسه ؛ لأنه إذا علم أن الدَّيْن مكتوب ، يحاول جاهداً أن يتحرك فى الحياة ليسد هذا الدَّيْن ، ويستفيد المجتمع من حركته أيضاً.

وعندما يكتب القرض فهذا أمر دافع للسداد وحَاثٌّ عليه ، لكن إن لم يكتب القرض فقد يأتى ظرف من الظروف ويتناسى القرض ، ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة فى أى أزمة ، فيريد الحق أن يديم الأسباب التى تتداول فيها الحركة ؛ ولذلك يقال فى الأمثلة العامية : من يأخذ ويعطى يصير المال ماله ، ويكون مال الدنيا كلها معه ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿**وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ** ..(٢٨٢)﴾ {البقرة}

وفى ذلك حماية للنفس من الأغيار ، ولم يمنع الحق الأريحية الإيمانية فقال : ﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ** ...(٢٨٣)﴾ {البقرة}

وهكذا ، يحمى الله الحركة الاقتصادية ، ونجد رسول الله ﷺ وهو الرحيم بالمؤمنين ، وقد بلغه أن واحداً قد مات وعليه دَيْن ، فقال للصحابة : صَلُّوا على أخيكم لكنه لم يُصَلِّ على الميت(١).

(١) عن أبى قتادة أن النبى ﷺ أُتِىَ برجل ليصلى عليه ، فقال النبى ﷺ «صلوا على صاحبكم فإن عليه ديناً» قال أبو قتادة : هو علىَّ . فقال رسول الله ﷺ : بالوفاء ؟ قال: بالوفاء . فصلّى =

وتساءل الناس : لماذا لم يُصَلِّ رسول الله ﷺ على هذا الميت ؟ وما ذنبه ؟ كأن رسول الله ﷺ أراد أن يُعلِم المؤمنين عن دَيْن المدين فلم يمنع الصلاة ، ولكنه لم يصل عليه حفزاً للناس ودفعاً لهم إلى أن يبرئوا ذمتهم بسداد وأداء ما عليهم من دَيْن.

وقد قال رسول الله ﷺ :«من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله» (١).

فما دام قد مات وهو مدين ، وليس عنده ما يسد الدين ، فربما كان لا ينوى رد الدين ، وأن نفسه قد حدَّثته بألا يرد الدين .

وفى فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئاً كبيراً لا يستطيع أن يتجاهله أو ينساه ، ثم لا يمر بذهن الذى أقرض أن فلاناً مدين ، بل وقد تبلغ الحساسية بالذى قدم القرض ألا يمر على المقترض حتى لا يحرجه.

ونثق أن الله قد قذف هذا الخاطر فى نفس المقرض ؛ لأن المقترض يريد أن يسدد القرض ، أما إن تحرك قلب الدائن على المدين ، وجلس يفكر فى قيمة الدَّيْن ، فليفُهم أن عند الذى اقترض بعض ما يسدد به الدين . أى : أن

=عليه. قال الترمذى : حديث حسن صحيح. أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٦٩) .
وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يُؤْتى بالرجل المتوفى عليه الدَّيْن فيقول: هل ترك لدينه من قضاء ؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاءً صلى عليه، وإلا قال للمسلمين : صلوا على صاحبكم. فلما فتح الله عليه الفتوح قام فقال : أنا أولَى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن تُوفِّى من المسلمين فترك ديناً علىَّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته» أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٧٠) وقال: حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٦١، ٤١٧) والبخارى في صحيحه (٢٣٨٧) عن أبي هريرة ، وأخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٤١١) بلفظ:«من أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله».

المدين عنده القدرة على الوفاء بالدَّيْن أو ببعضه ، ذلك أن الله لا يحرج من يجدّ ويجتهد فى السعى لسداد دينه .

والقرض من المال الذى لديْك يجعل المال يتناقص ؛ لذلك فالله يعطيك أضعافاً مضاعفة نتيجة هذا القرض ، وذلك منا سب لقوله تعالى : ﴿**يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ..(٢٤٥)**﴾ [البقرة]

فساعة تذهب إليه ويأخذ كل منا حقه بالحساب . أى: أن المال الذى تقرض منه ينقص فى ظاهر الأمر ، ولكن الله سبحانه يزيده ويبسطه أضعافاً مضاعفة ، وفى الآخرة يكون الجزاء جزيلاً.

والحق سبحانه يقول : ﴿**وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)**﴾ [البقرة]

إنه رِزْق بغير حساب من الله ، فقد يرزقك الله على قَدْر سَعْيك ، وربما أكثر ، وهو يرزق بغير حساب ؛ لأنه لا توجد سلطة أعلى منه تقول له : لماذا أعطيتَ فلاناً أكثر مما يستحق.

وهو سبحانه يرزق بغير حساب ؛ لأن خزائنه لا تنفد. ويرزق بغير حساب ؛ لأنه لا يحكمه قانون، وإنما يعطى بطلاقة القدرة ، إنه ـ جَلَّ وعلا ـ يعطى للكافر حتى تتعجب أنت وتقول : يعطى الكافر ولا يعطى المؤمن ، لماذا؟

إذا استطاع أحد أنْ يحاسبه فليسأله : لماذا يفعل ذلك؟ إنه يعطى مقابلاً للحسنة سبعمائة ضعْف بغير حساب ، إن الحساب إنما يأتى عندما تأخذ معدوداً ، فإذا أخذتَ مثلاً مائة من ألف فأنت طرحتَ معدوداً من معدود ، فلا بُدَّ أن ينقص ، وعندما تراه ينقص فأنت تخاف من العطاء ، لكن الله بخلاف ذلك ، إنه يعطى معدوداً من غير معدود .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا مثلاً حَياً على رزقه الواسع الذى لا تحدُّه حدود فى قصة مريم وزكريا عليهما السلام ، فيقول تعالى : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ {آل عمران}

فزكريا ـ عليه السلام ـ كان يكفل مريم ، ويأتيها بكل ما تحتاج إليه، ودخل عليها ليجد عندها ما لم يحضره لها ، وسألها وهى القديسة العابدة الملازمة لمحرابها.

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا هذه الصورة ، مع أن مريم بسلوكها وعبادتها وتقواها فوق كل الشبهات ، ولكن لنعرف أن الذى يفسد الكون هو عدم السؤال عن مصدر الأشياء التى تتناسب مع قدرات مَنْ يحصل عليها.

الأم ترى الأب ينفق ما لايتناسب مع مُرتبه ، وترى الابنة ترتدى ما هو أكبر كثيراً من مرتبها أو مصروفها .. ولو سألت الأم الأب أو الابنة : من أين لك هذا لما فسد المجتمع ، ولكن الفساد يأتى من أننا نغمض أعيننا عن المال الحرام.

بماذا رَدَّت مريم عليها السلام ؟

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾{آل عمران}

إذن : فطلاقة قدرة الله لا يحكمها قانون.. والحق سبحانه غير محكوم بالأسباب ، وسبحانه يعطى بلا حساب ، فالسيدة مريم أجابت الإجابة الإيمانية ، وأوضحت لسيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ : أنت تتكلم بحسابك ؛ ولكنِّى أتكلم بحساب الله تعالى ؛ لأن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب، أنطقها الحق ذلك لأن هذا القول سوف يخدم قضايا عقدية متعددة فى الكون.

وشاءتْ إرادة الله أن تـنطق مريم بهـذه المقولة : ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** (٣٧)﴾{آل عمران} لأنها ستنبه زكريا إلى شيء ، وستحتاجها أيضاً مريم فيـما بعد ، حينما تشـعر بالحمل من غير زوج ، فـلن تعترض على هذا الوضع ، وستعلم أنه عطاء من الله.

وكذلك نـبهتْ هذه الآية زكـريا ـ عليه السـلام ـ إلى فَضْل الله وسِـعَة رحـمـته ، وهذا أمـر لا يغـيب عن نبـى الله ، ولكن هناك قـضـايا فى النفس البشرية إلا أنها بعـيدة عن بُؤْرة الشعور وبعيدة عن الاهتمام ، فـإذا ما ذُكِّر بها انتبه إليها.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ...(٣٨)**﴾ {آل عمران} فما دام أن الله يرزق مَنْ يشاء بغـير حساب ، فلماذا لا أدعو الله بولد صالح يحمل أمر الدعوة من بعدى ، وطالما أن الرزق بغير حساب ، فلن يمنعه كِبَر السِّنِّ أو العُقْم أو خلافه.

فجاءتْه البُشْرى واستجيب دعاؤه ، قال تعالى :

﴿ **فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا** (١) **وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)**﴾ {آل عمران}

(١) الحصور : الذى يمنع نفسه من الشهوات . {القاموس القويم ١/ ١٥٧} .